جهود الحكم المستنصر في تطور الحركة العلمية في الأندلس

د. وائل أبو صالح
رئيس قسم اللغة العربية
بجامعة النجاح الوطنية ــ فلسطين

بلغت الأندلس في عهد الخلافة الأمويّة بقرطبة في القرن 4 /10 الأوج في مجالات شتى. ذلك أنّ الأقدار أتاحت لها ثلاثة رجال أفذاذ بوّؤوها المكانة الأولى بين كامل دول القارّة العجوز: فعبد الرّحمان الناصر قهر ثوّار الأندلس فكان لها الأمن والاستقرار، والمنصور بن أبي عامر دوّخ أعداءها فكان لها المجد والتّفوّق، والحكم المستنصر وطّد دعائم المعرفة بها فكان لها النّبوغ والإبداع. وإذا كانت المصادر قد تفنّنت في تدبيج أعمال الأوّل وحكمته وبطولات الثّاني وحنكته، فقد أهملت نسبيًا الإشادة والتنويه بخصال الثالث ومحاسنه. فمن هو الحكم المستنصر ؟ وما هي أجلّ أعماله في ميدان الفكر والمعرفة ؟.

أولا : حياته :

أ ــ ولادته ، خلافته ، وفاته :

المستنصر هو الحكم بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد ... من أشهر خلفاء بني أمية في الأندلس، ولد سنة 302 /914 وذلك يوم الجمعة مستهل رجب وقت آذان الظهر، ووالده النّاصر هو الذي لقبه بالمستنصر منذ صغره[1].

---

(1) ابن عذاري المرّاكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : 2 /166.

اعتلى الحكم سدّة الخلافة في اليوم الثّاني لوفاة أبيه[2]، وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من رمضان سنة 350 /961[3]، وقام بأعباء الملك أتمّ قيام، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، ودعا النّاس إلى بيعته، واستقبل من يومه النّظر في تمهيد سلطانه، وتثقيف مملكته، وضبط قصوره، وترتيب أجناده[4]، وكان أوّل عهد أنفذه ــ بعد أن أخذ البيعة ــ النّظر في الزّيادة في المسجد الجامع بقرطبة[5].

وقد ولّي الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة[6]، وكانت ولايته منذ بويع له إلى أن مات خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيّام[7]، وإذا ما علمنا أنّ مدّة خلافة والده كانت حوالي خمسين سنة، أيقنا أنّ خلافته كانت قصيرة مقارنة بوالده، فقد استغرقت خلافة أبيه الطّويلة عمرَه، حتّى كان يقول الوالد لولده فيما يحكى عنه : «لقد طوّلنا عليك يا أبا العاصي»[8].

توفّي بقصر قرطبة ليلة الأحد ، لثلاث خلون من صفر سنة 366 /976، وعمره يوم وفاته ثلاث وستون سنة، وسبعة أشهر[9].

ب ــ أخــلاقــه :

إنّ المطلع على ترجمة الحكم المستنصر في كلّ الكتب والأسفار الّتي تحدّثت عنه، يلاحظ أنّ أصحابها أجمعوا أنّه كان حسن السّيرة، صافي السّريرة رفيقا بالرّعيّة، فاضلا عادلا، من أهل الدّين والعلم، وقد تشدّد في إبطال الخمر في مملكته تشدّدا عظيما، فرام قطعها من جذورها، فأمر بإراقتها، ثمّ شاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، فقيل له: يعملونها من التّين وغيره، فتوقّف عن ذلك. وفي أمره بإراقة الخمور في سائر الجهات يقول أبو عمر بن يوسف بن هارون الكنديّ قصيدته المشهورة متوجّعا لشاربيها[10]:

(2) المقرّي : نفح الطيب : 1 /386 .
(3) ابن الأبار القضاعي : الحلّة السيراء : 1 /200 .
(4) المقري : نفح الطيب : 1 /386 .
(5) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب : 2 /233 .
(6) أحمد الضبيّ : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس : 18.
(7) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : 59.
(8) ابن الأبار : الحلّة السيراء : 1 /200 ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب : 71.
(9) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب : 2 /233. نفح الطيب: 1 /396.
(10) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : 67 .

[الوافر]

بِخَطْبِ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي | وَتَرْمُضُنِي بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي
أَعُشَّاقَ الْمُدامَةِ إن جَزِعْتُمْ | لِفُرْقَتِهَا فَلَيْسَ مَكَانُ صَبْرِ
سَعَى طُلَّابُكُمْ حَتَّى أُرِيقَتْ | دِمَاءً فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ تَجْرِي
تَضَوَّعَ عَرْفُهَا شَرْقًا وَغَرْبًا | وَطَبَّقَ أُفْقَ قُرْطُبَةٍ بِعِطْرِ

وفي رأيي أنّ إنسانا يقضي جل وقته بين أروقة مكتبته مطالعا ومعلقا ومنقّبا، ويحضر مجالس العلماء ورواة الحديث يسمع منهم ويروي عنهم، لا بد وأن يكون دمث الأخلاق فاضلا.

ج ـ أساتذته :

كان تعليم أولاد الخلفاء والأمراء والقوّاد في الأندلس يختلف عن تعليم أبناء العامّة، فقد كانت سُنّة الخلفاء والأغنياء إحضار المؤدّبين إلى قصورهم وإفراد غرف خاصّة يعلّمون فيها أبناءهم(11). فكثيرا ما نسمع أنّ بعض العلماء قد أدّب أبناء أحد الخلفاء وأنّ بعضهم الآخر قد اختصّ بأبناء الأغنياء لِتأديبهم(12)، وكذلك بالنسبة إلى الموّاد الدّراسيّة، فمن البديهيّ أنّ الخلفاء كانوا يأخذون أولادهم في مسار علمي أوسع وأدقّ من عناية البيت الأندلسيّ بصورة عامّة، فصحيح أنّ هناك تشابها بين المواد العلميّة التي تعلّمها الأندلسيّون في الكتاتيب وحلقات المساجد، وتلك التي تدرس في القصور، إلّا أنّ هناك حذفا أو إضافة استجابة لتوجيه الوالد، وتمشّيا مع رغبته في إعداد ولده إعدادا خاصّا يناسب الأهداف والمسؤوليات التي ستواجهه في مستقبل حياته، فولد الخليفة مرشّح لأن يخلف والده في إدارة البلاد، فلا بدّ له من الاطّلاع على بعض العلوم الّتي يجهلها أترابه، وفهمها في أقصر مدّة ممكنة، وهناك مواد منع الخلفاء عامّة الشّعب دراستها، أو مجرّد الاطّلاع عليها، وتدارسوها هم في بيوتهم، مثل الفلسفة والتّنجيم(13).

(11) ابن حيان القرطبي : المقتبس من أنباء أهل الأندلس : 133 .
(12) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين : 255 .
ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس : 1 /345 .
(13) المقري : نفح الطيب : 1 /221 .

وانطلاقا من هذا الفهم لطريقة تدريس أبناء الخلفاء نستطيع القول: إنّ الحكم المستنصر تتلمذ على يد نخبة من العلماء الأندلسيّين أحضرهم إلى قصر والده واستفاد منهم، ومن هؤلاء العلماء قاسم بن أصبغ، وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني، وزكريا بن خطاب حيث أكثر الأخذ عنه، كما أجاز له ثابت بن قاسم، وعندما وفد القالي على الأندلس اختصّ أوّل الأمر بالحكم فأدّبه وأفاده[14].

ويمكننا القول أيضا إنّ الحكم في مراحل حياته التعليميّة قد تتلمذ على يد هؤلاء، وربّما على يد الكثيرين غيرهم، إلا أنّه من جانب آخر كان يعتمد على تثقيف نفسه بنفسه، إذ كان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنّواحي النائيّة باذلا فيها ما عظم من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه[15]، وكان ذا غرام بها، وقد آثر ذلك على لذات الملوك فأصبح بعد مدّة ملمّا بشتّى المعارف دقيق النّظر في أصولها وفروعها.

د ـــ منزلته العلميّة :

استطاع الحكم المستنصر رغم اشتغاله بأمور البلاد والعباد أن يتبوّأ منزلة علميّة رفيعة بين علماء الأندلس، وقد شهد له بها معاصروه ومن جاء بعدهم من العلماء دون اعتبار لمنصب أو جاه، وأجمعوا بالدليل القاطع والبرهان الساطع أنّه كان عالما بالرّجال والأخبار والأنساب، وفوق ذلك كلّه كان ثقة فيما ينقله. وللتدليل على ما ذهبنا إليه نذكر نصّا أورده كل من أرّخ للحكم، ولكن بعبارات مختلفة، حيث يمكننا من خلاله معرفة ما استطاع الحكم تحصيله من علوم، وكيف استحقّ نتيجة لهذا أن يكون مؤرخا نسيج وحده، ومصدرًا ثرًا يُعاب على كل من أرّخ لعلماء الأندلس ممن عاصروه أو جاءوا بعده، ولم يعتمدوا ملاحظاته وتعليقاته المتعلقة بأنساب الرّجال وقبائلهم وتاريخ وفاتهم، وفيما يلي ذاك النصّ «وكان مع هذا كثير التهمّم بكتبه والتّصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلّما تجد له كتابا كان في خزانته إلّا وله فيه قراءة ونظر من أيّ فنّ كان من فنون العلم: يقرؤه ويكتب فيه بخطّه ـــ إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه ـــ نسبَ المؤلف ومولده ووفاته والتّعريف به، ويذكر أنساب الرّواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفنّ. وكان موثوقا به مأمونا عليه، صار كل ما كتبه حجّة عند شيوخ الأندلسيّين وأئمّتهم، ينقلون من خطه ويحاضرون

---

(14) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 59، نفح الطيب : 1 /395 .

(15) المقري : نفح الطيب : 1 /385-386 و394-395.

به»[16]. وقد اجتمع لابن الأبّار من ذلك جزء مفيد مما وجد بخطّه، ولمس ابن الأبّار ـــ وهو المؤرّخ المدقّق ـــ أنّه يشتمل على فوائد جمّة في أنواع شتّى، و«كان قد قيّد كثيرا من أنساب أهل بلده، وكلّف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كلّ عربيّ أخمل ذكره قبل ولايته، وأن يصحّح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلّف من الكتب، ويردّ كلّ ذي نسب إلى نسبه، وفرج ذلك بالعلم فتمّ له من ذلك ما أراد، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد»[16].

هـ ـــ أدبه :

لم يكن الحكم المستنصر مكثرا في قرض الشّعر كجدّه عبد الرحمان بن معاوية على سبيل المثال، وإن كان متذوّقا له، ناقدا لعلله. وكانت تمرّ به لحظات تفيض فيها شاعريّته بعدة أبيات يعبّر من خلالها عمّا يختلج في صدره من حزن أو شوق أو مسرة، من ذلك قوله متشوّقا لزوجه صبح البشكنسية لما خرج لغزوته الفذّة المعروفة بشَنْتِ أشْتِيبَنْ San Estéban del Mall، فأكثرت من التعلّق به، والوله لفراقه، وكان شديد الكلف بها، فتأثّر لذلك الموقف وترنّم بأبيات رقيقة صوّر خلالها مشاعره وإحساساته تجاهها، فهو لفرط حبّه لها يحنّ إليها وهي معه، فكيف ستكون طبيعة شوقه إليها وهي غائبة عنه، فالعجب كيف استطاع أن يعيش لحظات الوداع ولم يمت[17].

[الطّويل]

عَجِبْتُ وَقَدْ وَدَّعْتُهَا كَيْفَ لَمْ أُمُتْ ... وَكَيْفَ انْثَنَتْ عِنْدَ الْفِرَاقِ يَدِي مَعِي
فَيَا مُقْلَتِي العَبْرَى عَلَيْهَا اسْكُبِي دَمًا ... وَيَا كَبِدِي الحَرَّى عَلَيْهَا، تَقَطَّعِي[17]

ولم يكن الحكم أوّل من تشوّق إلى عزيز عليه ووصف لحظة الوداع، فهناك من سبقه من الشّعراء الّذين قالوا في ذلك شعرا جميلا، ولكن أبيات الحكم تعدّ من بينها في الطليعة. ومن ذلك أيضا قوله[18] :

[الطّويل]

إلى اللهِ أشكو مِنْ مُشَائِلٍ مُسْرِفٍ ... عَلَيَّ ظَلُومٌ لَا يَدِيـنُ بِمـا دِنْتُ
نَأَتْ عَنْـهُ دَارِي فاسْتَـزَادَ صُدُودُهُ ... وَإِنِّي عَلَي وَجْدِي القَدِيمِ كَمَا كُنْتُ
وَلَـوْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ شَوْقِيَ بَالِـغٌ ... مِنَ الوَجْـدِ مَا بُلِّغْتُهُ لَمْ أَكُنْ بِنْتُ

(16) ابن الأبار القضاعي : الحلّة السيراء : 1 /202-203.
(17) ابن الأبار : الحلّة السيراء : 1 /204، المعجب : 66 نفح الطيب: 1 /395.
(18) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 66 .

أما بالنّسبة إلى نثره الفنّي، فلم يكن الحكم ــ أيضا ــ مكثرا في هذا المجال، ولا أخال هذا لضعف فيه ، وإنّما لانهماكه في إدارة دفّة الحكم، إذ جرت العادة في الأندلس أن يعين الحاكم كتّابا يتولون كتابة رسائله إلى ولاته وحكّام أقاليمه، وذلك حتّى يتفرّغ الحاكم للأمور الجليلة، وبرغم ذلك فقد أتحفنا صاحب نفح الطّيب برسالة للحكم إبّان ولايته للعهد، كان قد وجهها إلى الفقيه أبي إبراهيم إسحاق المالكيّ يطلب منه فيها تبيان الأسباب التي أدّت إلى تخلّفه عن حفل أقامه النّاصر في قصر، وجاء في رسالته : «بسم الله الرحمن الرّحيم، حفظك الله وتولّاك، وسدّدك ورعاك، لمّا امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيّدي ــ أبقاه الله ــ الأولياء الّذين يستعدّ بهم ، وجدك متقدّما في الولاية ، متأخّرا عن الصّلة، على أنّه قد أنذرك ــ أبقاه الله ــ خصوصا للمشاركة في السرور الذي كان عنده، لا أعدمه الله توالي المسرة، ثم أُنذرت من قبل إبلاغا في التّكرمة، فكان منك على ذلك كله من التّخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة، واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه، فأعيت عليك عنك الحجّة، فعرّفني ــ أكرمك الله ــ ما العذر الذي أوجب توقّفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السّرور الذي سُرَّ به ورغب المشاركة فيه ، لنُعرّفه ــ أبقاه الله ــ بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى»[19].

ثانيا : تشجيعه أبناء الأندلس على طلب العلم :

لم يكن تشجيع الحكم المستنصر أبناء الأندلس على طلب العلم من خلال خطبة ألقاها على النّاس من على منبر المسجد الجامع بضاحية الزّهراء بقرطبة[20]، أو من خلال كتاب وجّهه إلى حكام الأقاليم، بل كان تشجيعه عبارة عن مجموعة أعمال جليلة كان لها أكبر الأثر في حثّ الأندلسيّين على طلب العلم، منها :

أ ــ إقراره مبدأ إلزاميّة التّعليم :

إن مبدأ مجانيّة التّعليم وخاصّة في «مرحلة الكتاتيب» من المبادىء التي عمل على تحقيقها الحكم المستنصر قبل حوالي عشرة قرون ونصف، وذلك عندما أمر بإنشاء مجموعة من الكتاتيب ــ أشبه ما تكون بالمدارس الابتدائيّة في يومنا هذا ــ وجعل التعليم فيها مجانا لأولاد الفقراء ، وتعهّد بالإنفاق عليها ، وتزويدها بكلّ ما تحتاج إليه من نفقات ، كأجر المعلمين،

(19) المقري : نفح الطيب : 1 /376.
(20) الزهراء : ضاحية في قرطبة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر، واستغرق بناؤها خمسا وعشرين سنة.

وطعام المتعلّمين، واختيار مجموعة من العلماء لوضع مناهج للمؤدبين تتناسب وسياسة الدولة ومدارك الطلّاب. وفي هذا يقول ابن عذاري المرّاكشي في حقّ الحكم المستنصر: «ومن مستحسنات أفعاله وطيّب أعماله اتخاذه المؤدّبين يعلّمون أولاد الضّعفاء والمساكين»[21] كما امتدح ابن شخيص[22] صنيع الحكم هذا فقال[23] :

[البسيط]

وَسَاحَةُ المَسْجِدِ الأَعْلَى مُكَلَّلَـةٌ مَكَاتِبًـا لِلْيَتَامَـى مِنْ نَوَاحِيهَـا
لَوْ مُكِّنَتْ سُوَرُ القُرْآنِ مِنْ كَلِـمٍ نَادَتْكَ يَا خَيْـرَ تَالِيهَـا وَوَاعِيهَـا

وقد بلغ «عدد هذه المكاتب سبعة وعشرين مكتبا» موزعة على أنحاء مدينة قرطبة، ثلاثة منها حوالي المسجد الجامع، وباقيها في كل ربض[24] من أرباضها. ومن أجل دفع المؤدبين إلى الإخلاص في تأديبهم أجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنّصح ، وفي سنة 364 /974 حبّس الحكم ضريبة حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضّعفاء[25]، وذلك كي يضمن لهؤلاء المؤدّبين رواتب ثابتة.

وبإمعاننا النّظر في هذا الخبر الذي تناقله مؤرّخو الأندلس فإننا نخرج بالملاحظات التّالية:

ـــ لقد كان الحكم المستنصر بصنيعه أوّل حاكم أندلسي يحقّق مبدأ مجانيّة التّعليم، فالأندلسيّون قبل الحكم كانوا «يقرؤون جميع العلوم بأجرة»[26] ولعلّهم في هذه النّاحية متأثّرون بمذهب الإمام مالك بن أنس[27] الّذي لا يعارض أخذ الأجرة على تعليم الصبيان[28].

---

(21) ابن عذاري : البيان المغرب : 2 /240، 241، 249.

(22) محمد بن شخيص : كان من أهل الأدب المشهورين، ومن أعيان الشعر المتقدمين، متصرفا في القول، سالكا في أساليب الجد والهزل، مات قبل الأربعمائة، (جذوة المقتبس 91 رقم 144، وبغية الملتمس 129 رقم 276، والمغرب : 1 /208).

(23) ابن عذاري : البيان المغرب : 2 /240-241.

(24) أرباض : مفردها ربض ، وهو مجموعة البيوت التي تحيط بالمدينة.

(25) ابن عذاري : البيان المغرب : 2 /249 .

(26) المقّري : نفح الطيب : 1 /220، وقد أطلق الأندلسيون على الأجرة «الحذقة» والحذقة ما يقدم للمؤدب حين يحذق صبيه تعليمه.

(27) انتشر مذهب الإمام مالك في الأندلس زمن الأمير هشام الرّبضي على يد زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون.

(28) د. أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام : 56، 156.

ـــ إنّ الحكم بإعفائه أولياء التّلاميذ من دفع الأجرة على التّعليم في هذه المرحلة، إضافة إلى توفير المآكل والمشرب لهم، يكون قد أقرّ مبدأ إلزاميّة التّعليم بطريقة غير مباشرة.

ـــ إن إقبال الأندلسيّين على طلب العلم في مرحلة الكتّاب نتيجة لتشجيع الحكم لهم، يؤدّي إلى ظهور جيل متعلّم ومجتاز لمرحلة الكتاب لينتقل إلى مرحلة تالية وهي المرحلة المسجديّة، وهذا بدوره يؤدّي إلى انتعاش الحركة العلميّة في الأندلس وتطوّرها، فينبغ من هؤلاء الصبيان عدد من العلماء قد لا يتسم لهم القدر لولا مساعدة الحكم لهم في مرحلة الكتاب، ذلك لأنّ الطالب عندما ينهي هذه المرحلة يكون قد أتقن القراءة والكتابة، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبويّة، واطّلع على مبادئ علم النحو وغير ذلك. وهذا القدر من الموادّ العلميّة يصلح لأن يكون أساسا نافعا لما سيأخذه في المرحلة القادمة[29].

ب ـــ رفع مستوى التعليم في المساجد :

لم تقف جهود الحكم عند مرحلة الكتّاب، بل تجاوز ذلك إلى المرحلة المسجدية، إذ عمل على رفع مستوى التّعليم في بعض المساجد، وذلك باستدعائه عددا من المؤدبين المشهورين والمشهود لهم في هذا المجال للتّدريس في المساجد الكبيرة في قرطبة، كي يفيد منهم أكبر عدد ممكن من المتعلّمين، وفي هذا الصدد تحدّثنا المصادر الأندلسيّة أنّه استدعى علي بن معاذ بن سمعان الرعيني من باجة فأخذ عنه ، ثمّ جلس يحاضر في مسجد الزهراء[30]، كما استدعى لهذا الغرض أبا بكر الزبيدي[31]، وفي أيّام ولايته للعهد استدعى أبا علي القالي من المشرق إلى قرطبة[32] حيث جلس يملي على طلّابه مصنّفاته التي منها كتابه الأمالي، حيث أملاه في الأخمسة في المسجد الجامع بالزّهراء[33].

وبعد، فاستدعاء الحكم لهذا النفر من العلماء قد أعفى عددا من طلبة العلم في قرطبة ـــ على أقل تقدير ـــ من عناء السّفر للتّتلمذ على هؤلاء العلماء في أماكن تواجدهم، وحبب إليهم في الوقت نفسه الأخذ عنهم، فوجود القالي ـــ على سبيل المثال ـــ بينهم اعتبره الكثيرون

(29) ابن عبدون : ثلاث رسائل أندلسيّة في أدب الحسبة والمحتسب : ص 25.
(30) محمد المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ـــ القسم الأول 410.
(31) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب : 1 /256، نفح الطيب : 4 /7.
(32) القالي : الأمالي : 1 /3.
(33) المقّري : نفح الطيب : 3 /74 ، الأمالي : 1 /3.

فرصة طيبة للأخذ عنه، فتسابقوا إلى حلقته حتى العلماء منهم. وممّا يروى في هذا الصّدد أنّ الزبيدي عالم اللّغة في الأندلس قبل قدوم القالي، كان يجلس في حلقة القالي ويأخذ عنه اعترافًا منه بفضله وعلمه[34]، إضافة إلى هذا تنوّع المواد الدّراسيّة التي يأخذونها عنهم وازدياد عدد طلبة العلم، وهذا بدوره يؤدي إلى اتّساع محصول هؤلاء الطلبة الثّقافي بازدياد تنافسهم على الأخذ في مرحلة أولى، مما ينعكس إيجابا على إنتاجهم في مرحلة ثانية، فكلّما كثر عدد العارفين والباحثين في فرع معين من فروع العلم تعمّقت جذوره وصحّت فروعه وسهل مطلبه وعمّت فائدته .

ج ـ مكافأة المتفوقين من الطلّاب :

لقد ظهرت مكافأة الحكم لهؤلاء الطلاب بعد عودتهم من رحلتهم العلميّة من بلاد المشرق، فخصّهم بوظائف عالية في الدولة، وقرّبهم وجعلهم من خواصه، فمحمد بن يحيى الرّباحي بعد عودته من بلاد المشرق، صار إلى خدمة الحكم المستنصر يعمل في خزانته، ويقابل بين الدواوين الواردة على مكتبته، وتوسع له الخليفة في النزل والجراية[35]. ومثله محمد ابن يحيى بن مفرج الذي اتصل به بعد رحلته وأصبحت له مكانة خاصة[36].

ولعل مساعدة الحكم لطلبة الأمس في مرحلتي الكتّاب والمسجد ومكافأة علماء اليوم ناتج عن رغبته في تطوير الحياة العلمية في الأندلس حتى يتمكن من منافسة حكام المشرق، وقد عبّر الحكم نفسه عن هذا المعنى صراحة في معرض ثنائه على خالد بن سعد قائلا : «إذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين ، فاخرناهم بخالد بن سعد »[37].

وتأكيدًا لكلّ ما ذكر من تشجيع الحكم لأبناء الأندلس على طلب العلم نورد قول ابن الأبّار فيه : « ولم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب ... أفاء على العلم ، ونوّه بأهله ، ورغّب النّاس في طلبه ... »[38].

ثالثا : تشجيعه العلماء على التّأليف :

لقد أدرك الحكم المستنصر أن العلم في صدور العلماء قابل للنّقصان بمرور الزّمن ، فالذّاكرة مهما جمعت من علوم ومعارف تظل قاصرة ، كما أنّ الإفادة من علم هؤلاء تبقى

---

(34) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 60 .

(35) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين : 314 .

(36) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس : 3 /91–93.

(37) نفس المصدر .

(38) ابن الأبار : الحلة السيراء : 1 /201.

محصورة في مجموعة الطّلاب الذين يأخذون عنهم سماعا، وكي يتلافى العالم خيانة الذّاكرة، وحتى تكون الفائدة من علمه أشمل وأوسع دائرة ، حثّ الحكم هؤلاء العلماء على التّأليف منشّطا إيّاهم بواسع عطائه وشارحا صدرهم بالإفراط في الإكرام[39] ومقدّما لهم كل عون ومساعدة علميّة، ومنها إيّاهم إلى طبيعة العلوم التي تفتقر إليها خزائن الكتب في الأندلس، فعندما وجد ــ على سبيل المثال ــ نقصا في كتب تراجم الأعلام المتخصصين في اللغة والنحو طلب من الزبيدي عالم اللغة في الأندلس أن يؤلف كتابًا في طبقات النّحويين واللّغويين في المشرق والمغرب، وحتى يخرج الكتاب على الشاكلة التي يريدها، فقد وضع للزّبيدي خطّة بحث واضحة وأوسعه من روايته وحفظه، فكان الكتاب المذكور الذي يعتبر من أفضل كتب تراجم النحويّين واللّغويّين لدقّته، وحسن ترتيبه وغزارة مادته، وفي هذا يقول الزبيدي :

«وأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ، لما اختصه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب المعرفة ، والإحاطة بصنوف الفنون ، أمرني بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النّحويّين واللّغويّين»[40] وعن الخطة التي وضعها كي يسير عليها قال : «فألّفت هذا الكتاب على الوجه الذي حدّه» أما عن المعلومات الّتي كان يزوده بها نقلا عن بعض هؤلاء النحويّين واللغويّين والتي لم يكن الزبيدي على علم بها قال : «وأوسعني من روايته وحفظه، إذ هو البحر الذي لا تعبر أواذيه، ولا تدرك سواحله»[41].

ولم يكن الزبيدي في مدحه للحكم مبالغا، فالمطلع على الكتاب يلاحظ دقّة معلوماته، وإحكام ترتيبه، وسعة مادته وعمقها، والفائدة التي يحصل عليها طالب العلم منه، وبمقارنة هذا الكتاب بغيره من كتب التراجم المختصّة والتي جمعت قبله وبعده بفترة يلحظ مدى الفرق بينهما، ويلحظ الجهد المبذول من الزبيدي والحكم، فقد كان الحكم في هذا الكتاب أستاذا مشرفا ترك بصماته الملوكيّة على كلّ صفحة من صفحاته.

صحيح أنّ هذا الكتاب المذكور هو ثالث كتاب من نوعه حسب الأولويّة الزمنيّة، إذ جمع الأوّل أبو الطيّب اللّغوي، ويليه كتاب السيرافي أخبار النحويّين، إلا أنّ منهج الزبيدي فريد لم يسلكه أحد قبله، ولا نهجه من جاء بعده... مما عُدّ به مصدرا أصيلا في تاريخ النّحو والمعاجم وفنون الأدب[42].

---

(39) عبد الواحد المراكشيّ : المعجب : 61 .
(40) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين : 17 .
(41) الزبيدي : المصدر نفسه : 18 .
(42) الزبيدي : المصدر نفسه : «المقدمة» : 2.

كما عمل الحكم على بثّ روح التّعاون بين العلماء في التأليف. فإذا ما كثفت الجهود لإنجاز عمل ما، فإنّ هذا يرفع من مستوى العمل المطلوب، وبهذا يكون الحكم قد خط نهجا قلّما سمعنا بمثله، وهو اشتراك عالمين في تأليف كتاب واحد، فقد عهد إلى كل من أحمد بن عبد الملك الإشبيلي ومحمد بن عبد الله القرشي المعيطي إلى جمع كتاب له في رأي مالك بن أنس أسماه «الاستيعاب» من مائة جزء، وعندما رفع إلى الحكم سرّ بذلك ووصلهما وقدمهما إلى الشّورى[43].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان هو نفسه يقوم بتصنيف الكتب ، فقد ألّف كتاب «أنساب الطّالبيّين والعلويّين القادمين إلى المغرب»، وهو مرجع استعان به معظم الّذين أرّخوا لعلماء الأندلس[44].

ومما لا شك فيه أنّ تشجيع الحكم لعلماء الأندلس على التأليف قد أفاد الحركة العلميّة في الأندلس على أكثر من صعيد، فبالإضافة إلى ما سلف ذكره، فقد جعل علم العلماء في بلده في تجدد ونموّ مستمرّين، ذلك لأنّ عمليّة التأليف تستوجب من العالم الاطلاع والقراءة لكلّ ما كتب حول الموضوع الّذي ينبغي الخوض فيه، حتى يدرك المدى الذي وصل إليه غيره، ويحاول أن يأتي بشيء جديد لم يتطرق إليه أحد من قبله إن أمكن، وهذا بالطّبع يعود بفائدة كبيرة على طلبته، فهناك فرق بين عالم يؤدب طلبته من كتابه الذي صنّفه وعالم يعتمد على كتاب لم يصنّفه ، وكذلك هناك فرق بين عالم يطلع على مؤلفات غيره أثناء التّدريس ويحاول أن يفيد طلبته منها ، وآخر حصر نفسه في مادّة محدّدة لا يتجاوزها.

أضف إلى هذا أن جمْع العلوم في كتب يحول دون ضياعها، فالكتاب يحفظ علم العلماء بعد وفاتهم ، وقد أدرك هذه الحقيقة من قبل الخليفة العادل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فبعد معركة اليمامة طلب إلى الخليفة الصدّيق أن يقوم بجمع القرآن من صدور الرجال، حتى لا تدفن آيات القرآن في صدور الحفظة عند استشهادهم.

وأخيرًا فقد ظهرت فائدة خطوة الحكم هذه بعد تدمير بغداد على يد المغول في سنة 1258/ 656، إذ قام المغول بإلقاء أعداد هائلة من المصنّفات العربية في نهري دجلة والفرات، عندها كانت خزائن الكتب الأندلسية بما تضمه من مؤلفات مشرقية وأندلسيّة هي الأساس الذي بنى عليه المشارقة جلّ مؤلفاتهم، وخاصة علوم العربية.

---

(43) ابن بشكوال : الصلة : 1 /23 .
(44) المقري : نفح الطيب : 3 /60 .

رابعا : احترامه للعلماء :

لم يكن احترام الحكم المستنصر لعلماء الأندلس مجرد تقليد لغيره من حكّام المسلمين في المشرق والمغرب ممن قرّبوا علماء بلادهم وخصّوهم بكلّ غال ونفيس، بل كان احترامه لهم طبعا أصيلا فيه، فهو — كما مرّ بنا — عالم أفنى وقتا طويلا من حياته في مطالعة الكتب والإفادة مما أنتجته قرائح علماء المشرق والمغرب، فعرف كم بذل هؤلاء العلماء من جهد،وكم كابدوا من مشقّة حتى وصلوا إلى هذه المرحلة. فهو إذن يقدر العلماء ويجلّهم لكونه واحدا منهم جالسهم وناظرهم . وللتدليل على إجلاله وتقديره لهم نورد هذه الحكاية : قيل : «إنّ الفقيه أبا إبراهيم إسحاق كان يحاضر في مسجد أبي عثمان، وكان مجلسه حافلا بجماعة الطلبة، إذ دخل عليه خَصيّ من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم المستنصر، فسلم وقال له: يا فقيه أجب أمير المؤمنين فإنّ الأمر خرج فيك، وها هو قاعد ينتظرك، وقد أُمِرت بإعجالك، فقال له: سمعا وطاعة لأمير المؤمنين، ولا عجالة، فارجع إليه وعرّفه، وفّقه الله، عنّي أنّك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلّاب العلم أُسمِعهم حديث ابن عمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهم يقيّدونه عنّي ، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتمّ الملجس المعهود لهم في رضاء الله وطاعته، فذلك أوكد من مسيرى إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من اجتمع إليّ مشيت إليه.وظل عالمنا يمهل الخليفة حتى أتم مجلسه على أحسن وجه، وعندما أراد الذهاب إلى قصر الخليفة استدعى الخصي وقال له: أنا أضعُف عن المشي إلى باب السّدّة، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي، وباب الصّناعة أقرب وأرفق بي، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتحه لأدخل إليه منه هوّن عليّ المشي، فأجابه الخليفة لطلبه، وأمر بفتح الباب، ومضى إلى الحكم وقضى حاجته من لقائه، ثم صرفه على ذلك الباب، فأعيد إغلاقه على إثرخروجه»(45).

وقد أعفانا المقرّي — الذي أورد هذه الحكاية — من التّعليق عليها، حيث قال معقّبا بكلام بليغ: «فهكذا يكون العلماء مع الملوك، والملوك معهم.»(45).

ومنها استقباله لأبي علي القالي عندما وفد على الأندلس، «فقد أمر عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة ويتلقّاه في وفد من وجوه رعيّته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة لأبي علي ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل»(46).

---

(45) المقرّي : نفح الطيب : 1 /377-378.

(46) المقرّي : نفح الطيب : 3 /70 .

على أن احترام الحكم لهؤلاء العلماء لم يذهب هباء، بل قوبل باحترام زائد أيضا، وقد عبروا عن احترامهم هذا بتأليفهم الكتب وإهدائها له، وهم في حالة لا ينتظرون منه منّا، ولا يبتغون شكرا، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء أبو علي القالي، حيث طرّز كتابه الشهير «الأمالي» باسم عبد الرحمن الناصر، واسم ولده الحكم المستنصر، وفي إهدائه يقول: فإنّي لما رأيت العلم أنفس بضاعة، أيقنت أنّ طلبه أفضل تجارة، فاغتربت للرواية، ولزمت العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه ... ثم صنته بالكتمان عمّن لا يعرف مقداره، ونزّهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودّعه من يستحقّه ... فغبرت برهة التمس لنشره موضعا ... ومكثت دهرا أطلب لإذاعته مكانا ... حتى تواترت الأنباءالمُتّفقة ... التي لا تخالطها الشكوك ... بأن مشرّفة في عصره أفضل من ملك الورى وأكرم من جاد باللهى فياض النّدى ... أمير المؤمنين «عبد الرحمن بن محمد» و... المنيل قبل أن يستنال «الحكم ولي عهد المسلمين وابن سيّد العالمين...»[47].

وليس من باب المبالغة عندما قلنا : إنّ الحكم المستنصر يعتبر في مقدمة حكام الأندلس الذي حازوا احترام العلماء وتقديرهم له وتقربهم إليه عن طريق إهدائهم له القيّمَ من أعمالهم ، وذلك من لدن شبابه حتى مماته ، فأحمد بن عبد ربه جمع له كتاب «العقد» في الأخبار، وهو كتاب كبير مقسم على معان ، وقد سمي كل قسم منها باسم من أسماء نظام العقد، كالواسطة، ونحوها[48]. كما ألّف له محمد بن يوسف الوراق في مسالك إفريقية وممالكها ديوانا ضخما، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليها كتبا جمّة[49]، وكذلك فعل عيسى بن أحمد بن محمد الكناني، فقد ألف للحكم المستنصر تاريخا ممتعا[50].

ولم تقتصر عادة إهداء الكتب والتأليف له على علماء المسلمين فحسب، بل شاركهم هذا الإعجاب وذاك الاحترام معظم طوائف المجتمع،فقد قيل : إنّ أسقفا من الأساقفة المسيحيين في قرطبة أهدى إلى الحكم المستنصر تقويما للأعياد المسيحية الإسبانية[51].

وهذا التّقدير المتبادل بين الحكم وعلماء الأندلس مسلمين ومسيحيّين ، كان له أثره الإيجابي في حركة التّأليف ، ثم إنّ قراءة الخليفة لما ينتجه هؤلاء ومناقشتهم فيه[52] عمل على

(47) القالي : الأمالي : 1 /1–2.
(48) ابن عبد ربه : العقد الفريد، الحميدي : جذوة المقتبس : 101، الضبي : بغية الملتمس : 148 .
(49) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة : 1 /366 و2 /671.
(50) محمد المرّاكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: السفر الخامس ــ القسم الثّاني : 491.
(51) خوليان ريبيدا : المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلاميّة : 1 /88.
(52) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 61 .

أن يكون هذا الإنتاج في مستوى رفيع، إذ بذل في سبيله العلماء أشدّ الطاقات ومنحوه أثمن الأوقات.

لقد كانوا — بحق — في سباق مع الزمن والجهد لإخراج أفضل ما عندهم له، ولم لا ؟ وهو الخليفة العالم الذي اختار سماره وخلصاءه ووزراءه من أهل الأدب والشعر...[53].

ومما لا شك فيه أن هذه الكتب أسهمت بشكل واضح في تطوير جانب من جوانب الحركة العلمية في الأندلس. فبذور الحركة اللغوية الحقّة — على سبيل المثال — في الأندلس إنما تم غرسها بجهود القالي فقد «كان إماما في علم اللغة متقدما فيها متقنا لها، فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه، واتخذوه حجة فيما نقله، وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والإتقان ، وقد ألف في علمه الذي اختصّ به تواليف مشهورة تدلّ على سعة روايته وكثرة إشرافه ، وأملى كتابا سماه «النوادر» يشتمل على أخبار وأشعار ولغة، سمع منه جماعات وحدثوا عنه...»[54].

أمّا بالنّسبة إلى كتابه «النّوادر» بالذات فيقول ابن خلدون فيه مادحا : «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التّعليم أنّ أصول هذا الفنّ وأركانه — يعنى علم الأدب — أربعة دواوين ، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها فروع عنها»[55]. وكذلك بالنسبة إلى كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه، فعلاوة على المادّة العلميّة المتشعّبة الفروع والأصول التي اشتمل عليها، فهو بتأريخه لحياة ملوك الأندلس شعرا إنّما مهد الطريق فسيحا لعدد من العلماء ممن جاءوا بعده، حيث نسجوا على منواله القصائد الطوال في تاريخ البشرية[56] والطب والقراءات[57] والنحو العربي وغيرها[58].

---

(53) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 62، ومنهم : أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفي ، وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي .

(54) المقرّي : نفح الطيب : 3 /72 .

(55) ابن خلدون : المقدمة : 553-554.

(56) ابن بسّام : الذّخيرة : القسم الأوّل — المجلّد الثّاني ص ص 918-944 أرجوزة «أبو طالب عبد الجبّار».

(57) أرجوزة ابن فيرو في القراءات .

(58) ألفية محمد جمال الدين بن عبد الله الطائي «ابن مالك» الجيّاني توفي 672 /1273.

خامسا : حرصه على جمع الكتب :

أجمع مؤرخو الأندلس الذين ترجموا لحياة الحكم المستنصر أنّه كان «جامعا للعلوم، محبّا لها، مكرّما لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك»(59). وقد ترتّب على نشاطه الملحوظ في هذا المجال أن أصبح يمتلك خزانة الكتب الأولى في الأندلس، وثاني أضخم ثلاث خزائن في العالم الإسلاميّ كلّه(60)، وبلغ عدد مجلّدات خزانته أربعمائه ألف مجلد، مرتّبة أسماؤها في فهارس، بلغ عدد هذه الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب «أربعا وأربعين فهرسة، في كلّ فهرسة خمسون ورقة»(61).

واهتمام الحكم بجمع هذه الكتب راجع لكونه تلميذا لأمهر المؤدبين في الأندلس، كما أنّه — حسب إشارة الرّوايات — كان عالما بالمذاهب، إماما في معرفة الأنساب، حافظا للتّاريخ.

أمّا بالنّسبة إلى كثرة الكتب لديه فقد كان لهدوء البلاد سياسيّا، وامتلاء خزائن الدولة بالأموال أثر فاعل في ذلك، إذ مكّنه هذا الاستقرار وذاك الثّراء من شراء أضخم المجلّدات وأنفسها، وذلك بوساطة بعثات علميّة أرسلها من الأندلس إلى بلاد المشرق لإحضار ما هو جديد منها(62).

والحكم باهتمامه هذا أفاد الحركة العلميّة في الأندلس على أكثر من صعيد، نذكر من ذلك تقليد الشعب الأندلسي الحكم في حبّ اقتناء الكتب، لذا نرى أحدهم يراقب سوق بيع الكتب في قرطبة حتّى تقع عينه على كتاب بحجم معين يضعه في مكتبته(63)، فيشتريه دون أن يلتفت إلى المادّة الّتي اشتمل عليها هذا الكتاب. إضافة إلى هذا لم يحتفظ الحكم في مكتبته وبالتالي في كثير من خزائن الكتب في الأندلس إلّا بالنسخ المضبوطة المنقّحة، وقد تحقّق له هذا بعد أن اختار مجموعة من علماء الأندلس المشهود لهم بالعلم الغزير بمقابلة الكتب الوافدة على خزانته ، ومن هؤلاء محمد بن الحسين عالم اللغة والأدب ، فقد عمل في خزانة الحكم وتولّى مع القالي مهمّة مقابلة كتاب العين للخليل، وفي ذلك يقول: «أمرنا

---

(59) الضبي : بغية الملتمس : 18 .

(60) القلقشندي : صبح الأعشى : 1 /466-467.

(61) ابن الأبّار : الحلة السيراء : 1 /203، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب : 100 ، ابن خلدون : العبر : 4 /146.

(62) نفس المصدر .

(63) المقري : نفح الطيب : 1 /462-463.

المستنصر بمقابلة كتاب العين للخليل بن أحمد مع أبي علي إسماعيل البغدادي... في دار الملك التي بقصر قرطبة وأحضر من الكِتاب نسخا كثيرة في جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي رواها بمصر عن ابن ولّاد»[64]، ومنهم محمد بن عبد الرحمن من معمر اللّغوي، حيث كان من أعلم النّاس بالكتب وعللها وألهجهم بجمعها وأفرزهم لخطوطها[65].

ومما لا شك فيه أن عمل المستنصر هذا ساعد العلماء وطلبة العلم على الاحتفاظ بنسخ صحيحة لكثير من المراجع اللّغويّة والأدبيّة وغيرها، صحيح أن النّسخ المضبوطة كانت بحوزة الحكم وعدد قليل ممن عملوا تحت إمرته، إلّا أنّ الاتّصال بهؤلاء العلماء ومقابلة بعض النسخ بما لديهم[66]، أو التّتلمذ على أيديهم ليس من الصعوبة بمكان، فقد كانوا يعملون، إلى جانب مهمّة مقابلة الكتب، في التّدريس بمساجد قرطبة. وبهذه الطّريقة يكون الطّالب قد حصل على كتاب صحيح المعلومات خال من أيّ تدليس أو تحريف.

وقد دفعته رغبته الجامحة في اقتناء الكتب أن أرسل بعثات على نفقته الخاصّة إلى الأقطار والبلدان مهمّتها جمع الدّواوين والدّفاتر والبذل في أعلاقها أنفس الأثمان[67]. وكانت النّتيجة أن حُملت إليه الكتب من كلّ جهة، وكان من جملة ما حقّقته هذه البعثات أنّها استطاعت شراء كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني، فقد بعث الحكم إلى الإصفهاني عن طريق هذه الوفود ألف دينار عينا ذهبا، فأرسل إليه نسخة منقّحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم[68]. وكذلك فعل مع القاضي الأبهري المالكيّ في شرحه مختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك[69]. كما استطاعت هذه البعثات أن تقيم علاقات علميّة طيّبة بين الحكم وبعض علماء المشرق، كتلك الّتي قامت بينه وبين أبي إسحاق محمّد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكنديّ وغيرهما[70].

والحكم بإرساله تلك البعثات العلميّة، وإحضاره هذه المجموعات القيّمة من الكتب أتاح الفرصة لعدد من علماء الأندلس وطلّابه للاطلاع على نخبة ممتازة من الكتب ما كان بمقدورهم الاطّلاع عليها لولا جهود الحكم، كذلك نشّطت هذه الكتب المقتناة حركة التأليف

---

(64) الحميدي : جذوة المقتبس : 51 .
(65) ابن الأبار : التكملة : 1/ 384 .
(66) المقري : نفح الطيب : 2/ 20.
(67) ابن الأبار : الحلّة السيراء : 1/ 200، وتاريخ ابن خلدون : 4/ 164.
(68) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 162، بغية الملتمس : 18-19.
(69) المصدر نفسه : 62.
(70) ابن الأبار : الحلة السيراء : 1/ 202.

في الأندلس، إذ قام فريق من العلماء هناك بالتّأليف على منوالها، كما فعل القالي عند تأليفه كتاب «البارع»، فقد سار على نهج الخليل في العين، إلّا أنّه «زاد على كتاب الخليل نيفا وأربعمائة ورقة مما وقع في العين مهملا فأملاه مستعملا، وممّا قلّل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة، وممّا جاء دون شاهد فأملى الشّواهد فيه ...»[71]. كما قام فريق آخر باختصارهما وإزالة الشاذّ منهما، فالزبيدي اختصر كتاب العين للخليل، وأخرجه في صورة مرتّبة فاقت الأصل، وفي هذا المعنى ينقل المقري: كان كتاب العين مختل القواعد فامتعض الزبيدي له، «وصقل صدأه كما يصقل الحسام، وأبرزه في أجمل منزع» حتى قيل : هذا ممّا أبدع واخترع[72]. كما عبّر عن هذا المعنى ابن خلدون في مقدّمته قائلا : «وجاء أبوبكر الزّبيدي... فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب، وحذف منه المهمل كلّه وكثيرا من شواهد المستعمل، ولخّصه للحفظ أحسن تلخيص»[73].

كما أفاد من مكتبة الحكم عند التأليف عدد من مؤرخي رجالات الأندلس وخاصة ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس»، فكثيرا ما نرى في كتابه «رأيت بخط الحكم المستنصر» و«قرأت بخط الحكم...» ومما يزيدنا تأكيدًا ما أورده صاحب كتاب المعجب في حقّ الحكم من أنّه : «قلّما يوجد كتاب في خزائنه إلّا وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلّا عنده، لعنايته بهذا الشأن»[74].

ويمكننا بعدُ الإضافة أنّ هذه الكتب أغنت كثيرا من طلاب الأندلس عن الرّحلة إلى المشرق للتتلمذ على علمائه، بعد أن أصبح لديهم عدد ضخم من أمّهات الكتب، لهذا بدأنا نقرأ في كتب برامج بعض شيوخ الأندلس[75] أنّهم أخذوا عددا من الكتب، المشرقيّة المؤلف، عن أساتذة أندلسيين.

وبعد فمهما تنوّعت فوائد صنيع الحكم المستنصر بجلبه الكتب واقتنائها، فإنّها تصب في نهر واحد وهو رقيّ الحركة العلميّة في بلاده. وهكذا نرى أنّه إذا حُقّ للمشرق أن يفخر بالمأمون العبّاسي لما بذله هذا الخليفة من جهد في توطيد دعائم نهضة فكريّة شاملة، فإنّ للمغرب — وخاصّة الأندلس — أن يُباهي بالمستنصر الأمويّ لما قام به من دور إيجابي في النّصف الثّاني من القرن 4 /10 بقرطبة، قد لا يقلّ قيمة عن الدّور الذي لعبه المأمون في بداية القرن 3 /9 ببغداد.

(71) أبو علي القالي : البارع : المقدمه : (د).
(72) المقري : نفح الطيب : 3 /476 .
(73) ابن خلدون : المقدمة : 549 .
(74) عبد الواحد المراكشي : المعجب : 62.
(75) ابن خير : الفهرسة .

في هجو النّساء

قال أبو البركات البلّفيقي(1):

قدْ هَجَوْتُ النِّساء دَهْرًا فلم أبـــ لغ أدانِـــي صِفَاتِهِـــنّ الذَّميمَـــةْ
ما عسى أن يُقَال في هَجْـوِ من قد خصّه المُصطفـــى بأقبـــح شيمـــةْ
أوَ يَبْقـى لِنَـــاقصِ العَقـــل والدّيـــ نِ إذا عُدَّتِ المَثَـــالبُ قِيمَـــةْ

الكتيبة ص 127

(1) الشيخ القاضي أبو البركات محمد بن أبي بكر محمد بن إبراهيم بن الحاج البلّفيقي توفّي بالمريّة 773 /1371. وكان من مشاهير العلماء في عصره (الكتيبة عدد 46 ص 127).

ومن الضّرورة ما أحوج

كان أحد بني عبد المؤمن(1) قد ألزم أبَا محمد عبد المولى(2) ــ وكان ماجنا ــ أن ينسخ له كتابا بموضع منفرد. فخطر له يوما جلد عُميرة، واتّفق أن مرّ السّيد(3) يوما بذلك الموضع، فنظر إليه في تلك الحال، فقال له السيّد ما تصنع فقال: الدّواة جفت، ولم أجد ما أسقيها به إلّا ماء ظهري، فضحك السيّد وأمر له بجارية. فقال :

قُل للعُمَيْـــــرةِ طُلِّقـــــــت بعـــــــدَ طُول زواج
قد كَان مَائِـــي ضِياَعـــا يَمـــــرُّ في غيـــرِ حَاج
حتّـــى حَبَانـــي بحسْنَـــا ءَ قَابـــــلِ للنِّتَـــاج
فكـــان ناقـــلَ خَمْــــرٍ من حَنْتَـــم لِزُجَـــاج
كَانت تمــــرُّ ضِياعـــا فأصْبَـــــحت كالسِّرَاج

النّفح : 3 /512

(1) بنو عبد المؤمن : هم الموحّدون نسبة إلى المؤسّس الفعلي لدولة الموحّدين وهو عبد المؤمن بن علي .
(2) أبو محمد عبد المولى : وَلَدُ أبي عبد الله محمد بن علي اللّوشي المترجم له في المغرب : 2 /158. وكان أبو عبد الله قاضي لَوْشة وفقيهها وعالمها .
(3) السيّد : لقب أطلق على كلّ من حكم الأندلس من الموحّدين بصفة خاصّة، وعلى كلّ أبناء عبد المؤمن من أمراء الموحّدين بصفة عامّة.